زلزال مصر[1]

● الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

مررت وأنا عائد من فرنسا لافتتاح الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية، مررت بالقاهرة، بعد أن حدث ذلك الزلزال الرهيب الرعيب، الذي زلزل العمران والمباني، وزلزل معها القلوب والأنفس.

زلزل الناس زلزالاً شديداً أمام هذا الحدث الغريب الذي لم يعهدوا مثله، ووقف الناس يتساءلون: ما بال هذا الزلزال؟ أهناك علاقة بين ما يحدثه الناس وبين الأحداث التي تحدث بهم؟ أهناك علاقة سببية بين المعاصي والمفاسد التي تقع من البشر، وبين ما ينزل بهم من كوارث يسميها الناس: كوارث طبيعية؟.

وقف الناس يتساءلون، فمنهم من قال: هذه كوارث طبيعية، تحدث في كل بلاد الدنيا، تنزل بالمؤمنين والكفار، والمتقين والفجار، ولا علاقة لها بطاعة ولا معصية، ولا باستقامة ولا انحراف، ما بالكم تربطون كل شيء بالدين، وتريدون أن تدخلوه في هذه المسألة؟.

وهناك من يقول: لا، إن هذه الكوارث التي تنزل، لا تنزل اعتباطاً، ولا تقع جزافاً، إن هذا الكون في قبضة الله تبارك وتعالى، يدبر أمره ويعلم كل صغيرة وكبيرة فيه ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ

---

(١) هو الزلزل الذي وقع في مصر في ١٢ من أكتوبر عام ١٩٩٢م، وقد صاغ الأستاذ القرضاوي في تلك الحادثة شعراً نشر في ديوانه: المسلمون قادمون (ص ١٠٣ ـ ١٠٦).

وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

هذا الكون لا يسير عبثاً، إن الله هو الذي يسيره، إن الله هو الذي يقدر كل ما فيه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩] ، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] .

كل ما يجري في العالم العلوي، أو في العالم السفلي، كل ما تمور به الأرض، وكل ما يتحرك في السماء، كل نبتة تنبت، كل نجم يطلع، وكل ذرة في هذا الوجود، كلها بإذن الله تعالى وتقديره.

هذا الكون من الذرة إلى المجرة في يد الله تبارك وتعالى، فإذا أخرج بعض الأحداث من حيز العدم إلى حيز الوجود، فلا بد من أن وراء ذلك حكمة.

الله هو الذي يزلزل الأرض، الله هو الذي يجري الأنهار، الله هو الذي يرسل الرياح، ولكن لماذا يظهر الزلزال في وقت دون وقت، وفي مكان دون مكان، وبمقدار معين دون آخر، لماذا ظهر هنا في هذا المكان وظهر في هذا الزمان، وظهر بقوة (خمسة وكذا من عشرة)، واستمر كذا وكذا ثانية، الله الذي يقدر ذلك، ولا يفعل الله شيئاً عبثاً، لا يفعل شيئاً إلاّ لحكمة ارتضاها، هذا ما يعتقده المؤمنون.

الغربيون وتلاميذهم يعتقدون: أن الله بمعزل عما يجري في الكون، حتى الذين يعتقدون أن الله هو خالق الكون قالوا: إن الله خلق الكون وتركه، كهذه الساعة في يدنا، صنعتها مصانع سويسرا ولا تدري ماذا حدث بعد ذلك، هي تقف وحدها... تتحرك، لا يعلم صانعها عنها شيئاً، هكذا يقولون عن العلاقة بين الله والعالم.

ولكن هذا مناف كل المنافاة للعقيدة الإسلامية، نحن نعتقد: أن الكون في قبضة خالقه ومدبره، الصغيرة والكبيرة فيه تجري بأمره، وهو بهذا إذا حدث فيه شيء، فلا بد أن الله تعالى أحدثه لسبب، لحكمة.

هذه الزلازل التي نراها في أماكن شتى، تكون أحياناً ضعيفة، وتكون أحياناً قوية، تكون أحياناً خفيفة، وأحياناً عنيفة، وأحياناً تأتي وتدمر، وأحياناً تكون هزة لا تؤثر.

هذه الفيضانات التي تغرق الناس، وتغرق المساكن، وتهدم البيوت، هذه الرياح الهوج، التي لم يسلم منها بلد مثل أمريكا وغيرها، هذه البراكين التي تنفجر وتثور، دون أن يستطيع أحد إيقافها، هذه الكوارث التي يقول الناس عنها: طبيعية، وبعضهم يقول: إن هذا من غضب الطبيعة... الطبيعة غضبت، وما هذه الطبيعة الصماء الخرساء؟ إن الطبيعة لا تغضب، الطبيعة لا تسير نفسها.

الذي يسير الطبيعة ويسير الكون كله هو الله تبارك وتعالى، وهو سبحانه حينما يجري هذه الأحداث يجريها بأقدار.

وهنا يقف المؤمنون أمام هذه الأحداث وقفة تأمل وتدبر وعظة واعتبار، فالمؤمن يعتبر بكل شيء، ويتعظ من كل حدث، ويأخذ منه درسه، ولا يمر عليه بأذن صماء، ولا بعين عمياء، ولا بقلب أغلف، إنما يفتح له أذنه، ويفتح له عينه، ويفتح لهذا الحدث قلبه، ليعتبر ويتعظ.

إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يلقننا دروساً بمثل هذا الحديث، أراد أن يعلمنا أن هذا ابتلاء، فحياة الإنسان قائمة على الابتلاء: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢] ، ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] .

يبتلى الإنسان بالشر ويبتلى بالخير، وقد يأتي الشر بالخير، ورب ضارة نافعة، وكم من منحة في طي محنة، قد تأتي بعض الكوارث بأشياء طيبة ينتفع منها الناس إذا أحسنوا الانتفاع وتلقنوا الدرس جيداً.

هو ابتلاء، والله يبتلي الناس جميعاً، كافرهم ومؤمنهم، وقد يبتلي المؤمنين بأكثر مما يبتلي الكافرين: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا

﴿يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ٢] . هذه واحدة.

حكمة ثانية هنا: أن هذا الحدث تنبيهاً للناس، تنبيهاً للغافلين، وإيقاظاً للنائمين، أراد الله أن ينبههم إلى أشياء:

أن ينبههم على طلاقة القدرة الإلهية، ونفوذ المشيئة الإلهية، أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً فإنه يقول له: كن فيكون، تتزلزل الأرض، وتهيج الرياح، وتفيض المياه، وتغرق الأنهار والبحار، ويتحرك كل شيء أراده الله تعالى أن يتحرك، يسكن كل شيء أراد الله تعالى أن يسكن، لا بد للناس أن يعرفوا مدى طلاقة القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء.

ومن ناحية أخرى تنبيه للإنسان على أن يعرف حجمه في هذا الكون، أيها الإنسان: ما أنت؟ أيها المغرور بنفسك... أيها الثاني لعطفك... أيها المصعر لخدك... أيها المتمطي برأسك: ما أنت في هذا الكون؟ أنت لست شيئاً مذكوراً، لا تعرف ماذا يحدث لك بعد لحظة.

الإنسان الذي استطاع أن يفعل ما يفعل، الإنسان في الغرب، في أمريكا، في غيرها، صنع الكمبيوتر، وغزا الفضاء، ووصل إلى القمر ووقف على سطحه، ويحاول أن يصعد إلى كواكب أخرى، ولكن أمام هذه الأحداث لا يستطيع أن يفعل شيئاً، يمكنه أن يقول: هناك احتمال لزلزال يقع، ولكن متى يحدث بالضبط؟ وفي أي مكان بالضبط؟ وما مقدار قوته بالضبط؟ لا يستطيع أن يعلم ذلك: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] .

ينبغي أن يعرف الإنسان حجمه، ويعرف مدى قوته، الإنسان المغرور، المختال الفخور، ينبغي أن يعلم: هذا هو شأنه في هذا الوجود، إنه لا يملك هذا الكون.

كان الغربيون يقولون: استطاع الإنسان بالعلم أن يقهر الطبيعة، ويقهر الكون المادي من حوله، وكذبوا، ما استطاع الإنسان أن يقهر الطبيعة.

استطاع أن يذلل كثيراً حسب قوانين التسخير الإلهي لهذا الكون؛ لأنه سخر للإنسان ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، ولكن تظل هذه الطبيعة وهذا الكون أقوى منه، يقف أمامها عاجزاً مشلولاً لا يستطيع أن يصنع شيئاً، هذا هو الإنسان.

كان الإمام علي رضي الله عنه يقول: «مسكين ابن آدم، تؤلمه البقة، وتقتله الشرقة، وتنتنه العرقة»، البقة: حشرة صغيرة تؤلمه، والآن عرفنا أن ميكروباً... فيروساً صغيراً يستطيع أن يمرض الإنسان وأن يقتله، وهو شيء لا يرى إلاّ بتكبيره ملايين المرات، وتقتله الشرقة إذا شرق... يقتل بالذبحة... يقتل بالسكتة... يموت في لحظة. وتنتنه العرقة: إذا عرق أنتن جسده، وساءت رائحته، هذا هو الإنسان: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] ، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ [الشورى: ٣١] .

أراد الله تعالى: أن يعرف الإنسان حجم نفسه، وقدرة نفسه، وعلم نفسه، وأن يعلم: أن القدرة كلها من الله، وأن العلم كله منه، وأن الحكمة كلها لله.

أراد الله تعالى: أن ينبهنا أيضاً على قيمة هذه الدنيا التي يتشبث الناس بها، ويحرصون عليها، ويلهثون وراءها، ويتهافتون عليها تهافت الذباب على الشراب، أو يتقاتلون عليها تقاتل الكلاب على الجيف، هذه الدنيا لا تساوي شيئاً، الإنسان يكون في بيته ولا يدري أنه بعد قليل سينهدم به بيته، وتزلزل الأرض من حوله، فإذا البنيان الشاهق ينهار، وإذا هذا الإنسان لا شيء، وترى الناس بعد لحظات قد ماتوا، والعمران قد خرب، هذه هي الدنيا:

جبلت على كدر وأنت تريدها ... صفواً من الآلام والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار

الناس يستبعدون الموت، ويظنون أن الموت شيء بعيد، والموت أقرب إلى أحدهم من شراك نعله.

كل امرىء مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧] .

أراد الله تعالى: أن ينبه الناس على هذا كله، وأن ينبههم على شيء عظيم. أراد أن يذكرهم بأمر عظيم: بزلزلة الساعة، الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ١ ـ ٢] .

زلزلة في أقل من دقيقة، بخمس درجات وبعض الكسور بمقياس (رختر)!! ما بالكم إذا كانت هذه الزلزلة بمقدار عشر درجات، أو عشرين، أو ثلاثين؟! ما بالكم إذا استمرت دقيقتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً، أو عشراً، أو أكثر من ذلك؟! ماذا تكون هذه الزلزلة؟!.

تلك زلزلة يوم القيامة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة: ١ ـ ٦] : الجبال الراسيات الشامخات تبس بساً، وتفتت تفتيتاً، حتى تصبح كالهباء: الذرات التي نراها في شعاع الشمس: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: ٥] : هذه الجبال تصير كالصوف المندوف: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧] .

هذه زلزلة يوم القيامة: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ [الحاقة: ١٤ ـ ١٥] ، هذه زلزلة الساعة، لذلك يقول الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة: ١] : زلزالها المترقب المنتظر، الذي هو الزلزال الحقيقي: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة: ٢] : نفضت كل ما فيها نفضاً، ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ [الزلزلة: ٣] : ما الذي حدث لها؟ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: ٤ ـ ٥] ، الله هو الذي أمرها أن تفعل ذلك، فلك تملك إلاّ أن تطيع الأمر.

هذه زلزلة القيامة: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ١ ـ ٢] أهناك أكثر حرصاً من الأم على طفلها، خصوصاً إذا كان فمه في ثديها... التقم الثدي ليرضع؟ إن الله لم يقل: تذهل كل مرضع، بل قال: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ [الحج: ٢] ، المرضع: المرأة في وقت الرضاع، ولكن المرضعة: التي ترضع بالفعل، أي: أن طفلها كان ملتقماً ثديها، هنالك نسيت طفلها، فكل إنسان لا يذكر إلاّ نفسه، عند ذلك الهول العظيم كل يقول: نفسي نفسي، حتى الولد وفلذة الكبد تنساه الأم... الأم الرؤوف الأم الحانية.

رأينا في هذا الزلزال البسيط البسيط، واليسير اليسير بالنسبة لزلزال الآخرة، رأينا المرأة تنزل من بيتها وتنسى أن لها أطفالاً، وحين تنزل تقول: أين أولادي؟ وزمن الناس من نزل بالملابس الداخلية، حتى أن بعض المحلات التي تبيع الملابس كانت تلقى بها على النساء ليتسترن، ومنهم من خرج من الحمام والصابون على جسمه، هكذا الحياة عزيزة عند الناس.

هذا يذكرنا بيوم القيامة: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢] .

حينما قال النبي ﷺ: «يحشر الناس حفاة عراة غرلاً» قالت عائشة: الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك»[1]، من عنده ـ في ذلك اليوم ـ عقل يفكر في الغريزة أو في الشهوة أو في المرأة؟! ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧] .

---

(١) رواه عن عائشة البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجة.
وروى الطبراني في الأوسط صحيح عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة عراة حفاة» فقالت أم سلمة: فقلت: يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض! فقال: «شغل الناس» قلت: ما أشغلهم؟ قال: «نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر، ومثاقيل الخردل»، وثم رواية أخرى ذكرها الطبراني عن سودة بنت زمعة رضي الله عنها، انظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٩٢٥ ـ ٩٢٦).

أراد الله تعالى أن يذكرنا بمثل هذه الأحداث، فقد نسي الناس القيامة، مشكلة الناس أن القيامة بمعزل عن عقولهم، كأنهم مخلدون، وكأن الموت على غيرهم قد كتب، العقدة عند الناس أنهم لا يفكرون في الآخرة، ولا يرجون لقاء الله، وهذا هو الخطر.

ما أحوج الناس أن يتذكروا الآخرة، لو تذكروا الآخرة ووضعوها نصب أعينهم، لحلت مشكلات كثيرة، بل لحلت المشاكل كلها.

وشيء مهم وراء هذا كله وهو الثمرة: هو تنبيه العصاة ليتوبوا، والضالين ليهتدوا، والمنحرفين ليستقيموا. تنبيه الناس ليرجعوا إلى الله ليقرعوا بابه ويقولوا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

هذه المواقف لا بد من أن ترد الناس إلى فطرتهم ليقولوا: يا ربّ، فمن يدري: لعلهم في هذه اللحظة يقضون نحبهم، وينتهي أجلهم.

الدرس المهم: أن يتعلم الناس التوبة من العصيان، أن يتطهروا ويغتسلوا من ذنوبهم... من أدرانهم... من أطماعهم... من شهواتهم، أن يولدوا من جديد.

الناس أمام الشدائد والبلاء أصناف وأنواع:

هناك صنف: عرف الله، ووضع يده في يد الله، واستقام على منهج الله، أحل الحلال وحرم الحرام، وعرف أن الخير كل الخير في اتباع منهج الله، والسير خلف رسول الله ﷺ، هؤلاء هم المؤمنون الصادقون، عرفوا الله في الرخاء ليعرفهم في الشدة، كما جاء في وصية النبي ﷺ لابن عباس: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة...»[1]، هذا هو الصنف الأول، يشعر أنه دائماً بحاجة إلى الله في اليسر والعسر، في الفقر والغنى، في

---

(١) خرجه الإمام أحمد من رواية حنش الصنعاني عن ابن عباس، ورواه الترمذي بلفظ آخر وقال: حديث حسن صحيح، وهو الحديث التاسع عشر من الأحاديث الأربعين النووية، وانظر (جامع العلوم والحكم) لابن رجب الحنبلي.

النعماء والبأساء، في الصحة والسقم، في كل حال، يعلم أنه فقير إلى الله عز وجل، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، فهو دائماً مع الله.

هناك صنف ثان: إذا كان في عافية ورخاء استرخى، ونسي ربه، ولم يذكر إلاّ نفسه، ولكن إذا جاءت الشدة، إذا أحاط به البلاء، سرعان ما يرجع إلى ربه، ويعلم أن هذه المصيبة إنما جاءت لترده إلى الله رداً جميلاً... لنأخذ بيده إلى الله... ليقف بين يدي ربه متضرعاً مبتهلاً... ليتوب إلى الله توبة نصوحاً.

والله تعالى ليس على بابه حاجب ولا بواب، من رجع إليه تلقاه من بعيد، ومن أعرض عنه ناداه من قريب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، هذا هو الصنف الثاني، ينسى ساعة الرخاء، ولكن ساعة الشدة يعرف الله، ويرجع إليه رجوعاً صادقاً، ويستقيم على أمره ويثبت عليه.

وصنف ثالث: وهو الذي ينسى الله في الرخاء، ويذكره ساعة الشدة، حتى إذا ما انفرجت الأزمة، وحتى إذا ما ذهبت الغمة، عاد إلى طريق الضلال ثانياً، ونسي ما كان يدعو إليه من قبل، وهذا شأن المشركين الذين حدث الله عنهم فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢] .

ولأنهم دعوا الله مخلصين له الدين استجاب الله لهم، لأنهم في هذه اللحظات رجعوا إلى الفطرة السوية، ونسوا هبل واللات والعزى والأوثان، والأصنام: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣] هكذا شأن هؤلاء يعرفون الله ساعة الشدة وبعد ذلك يرجع كل شيء إلى ما كان عليه: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر: ٨] .

وهناك صنف أسوأ من هذا الصنف: صنف قسا قلبه حتى أصبح كالحجارة أو أشد قسوة، تنزل به البلايا، وتحيط به المصائب والكوارث، ولكنه لا يقول:

يا رب، يا رب، كأولئك الملاحدة والجاحدين الذين أنكروا على من ربط هذا الحادث بالدين، وأنه وقع بسبب المعاصي، فقالوا: ما هذا الفكر الخرافي؟ ما هذا الضلال؟.

هؤلاء الناس لم يستطيعوا أن يفهموا الدرس، ولذلك يقول الله في أمثالهم: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٦]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٢ ـ ٤٣].

من فضل الله تبارك وتعالى أنه حينما ينزل بالناس البأساء والضراء، لا يريد أن ينتقم منهم، ولكن ليعلمهم... لينبههم... ليذكرهم، كما قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]، الفساد هنا: يعني: اختلال أمر الحياة... المصائب... الكوارث... الغلاء... البلاء... الأمراض... الأوجاع... التلوث، وهذا الفساد بما يقع؟ ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بمعاصيهم... بذنوبهم، ولماذا يقع: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم: ٤١]، أي: أن الله لا يجزيهم بكل ما عملوا، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١] إنما يؤاخذهم ببعض ما عملوا، ولماذا يؤاخذهم ببعض ما عملوا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عسى أن يفهموا الدرس، لعلهم يرجعون، لعلهم يتوبون.

كان بعض السلف إذا أصابه أدنى شيء، يقول: هذا بشؤم معصيتي، حتى إذا كشرت امرأته في وجهه، أو تخانقت معه في أمر من أمور البيت، قال: ما الذي جعل المرأة تفعل معي كذا وكذا هذا اليوم، لا بد أني قد ارتكبت معصية، إذا حرنت عليه دابته يقول: لا بد أني ارتكبت مخالفة، قال بعضهم: إني لأعرف شؤم معصيتي في سوء خلق دابتي.

هكذا أصحاب القلوب... أصحاب البصائر... أصحاب الحس

المرهف، يرذون الأمر إلى أنفسهم، كما قال الله تعالى عن الربانيين حينما هزموا في المعركة: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: ١٤٧]. قبل أن يسألوا النصر والتثبيت، سألوا الله أن يغفر لهم ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم، فلا بد أنهم فرطوا أو قصروا، هذا هو شأن الإنسان المؤمن، يرجع باللائمة على نفسه.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، ولكن صنفاً من الناس تنزل بهم الشدائد ولا يرجعون... ولا يتوبون، ولا يتضرعون... لا يقولون: يا رب، يقولون كل شيء إلاّ الله تبارك وتعالى، يقول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣]، أصحاب القلوب القاسية، الحجرية هذه، لا تنفع فيها الشدائد ولا غير الشدائد والعياذ بالله.

يا أيها الإخوة: هذه المصائب والأحداث التي يجريها علينا العزيز الجبار، الواحد القهار، جديرة بأن توقظ الناس من سباتهم... أن تنبههم إلى ما فيها من دروس وعبر، حتى يفيقوا ويرجعوا إلى الله تبارك وتعالى.

حينما مررت بمصر سألني بعض الأقارب فقالوا: كنا في ذلك الوقت لا نعرف ماذا نقول: أليس هناك أذكار أو أدعية نقولها عند الشدة؟.

قلت: هناك الكثير الكثير جداً، هناك أدعية وأذكار تسمى (أذكار الكرب) و(أدعية الكرب)، يلجأ الإنسان إليها حينما ينزل به كرب خاص، أو ينزل بالأمة كرب عام، منها ما رواه الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إلٰه إلاّ الله العظيم الحليم، لا إلٰه إلاّ الله رب العرش العظيم. لا إلٰه إلاّ الله رب السموات السبع، ورب الأرض، رب العرش الكريم»[1]، وفي جامع الترمذي عن أنس، أن رسول الله ﷺ، كان

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات: باب الدعاء عند الكرب، ومسلم في الذكر والدعاء: باب دعاء الكرب.

إذا حزبه أمر، قال: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»[1]، وعن أبي هريرة، أن النبي ﷺ، كان إذا أهمه الأمر، رفع طرفه إلى السماء فقال: «سبحان الله العظيم»، وإذا اجتهد في الدعاء قال: «يا حي يا قيوم»[2].

روى سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دعوة ذي النون إذ دعاه وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلاّ استجاب الله له»[3]، حينما التقمه الحوت نادى في الظلمات: ظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل، وظلمة البحر، في وسط هذه الظلمات لم يطلب النجاة لنفسه، ولكنه قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فنجاه الله ولفظه الحوت، سأل رجل النبي ﷺ فقال[4]: يا رسول الله، هل كانت ليونس خاصة، أم للمؤمنين عامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ألا تسمع إلى قول الله ـ عزوجل ـ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

المؤمنون إذا لجأوا إلى الله موحدين: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] مسبحين منزهين: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] معترفين بالتقصير ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فإن الله يفرّج عنهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات، وفي سنده يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف (زاد المعاد بتحقيق كل من: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، ٤/١٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات: باب ما يقول عند الكرب، وفي سنده إبراهيم بن الفضل المخزومي، وهو متروك (زاد المعاد: ٤/١٩٧).

(٣) رواه الترمذي، واللفظ له، والنسائي، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وذكره ابن كثير في تفسيره وعزاه للمسند، وللنسائي في (اليوم والليلة)، وصحح شاكر إسناده (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٤٧٦، الحديث ٩٢٢).

(٤) هذه الزيادة في رواية الحاكم (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: الحديثان ٩٢٢، ١٠٤١).

أدعية الكرب كثيرة: لا حول ولا قوة إلاّ بالله، الاستغفار[1]. ويكفي الإنسان إذا لم يتذكر شيئاً أن يقول: يا رب... يا رب يا حي يا قيوم... يا الله يا الله... سبحان الله... الحمد لله... لا إله إلاّ الله... الله أكبر[2].

هذا ما ينبغي أن يشغل به المؤمن نفسه في ساعة الشدة، أما أن يفعل ما يفعله بعض الناس، صراخ وولولة، فهذا ليس من شأن المؤمنين.

لا بد من أن يتربى الإنسان التربية التي يواجه بها الشدائد برباطة جأش، وباللجوء إلى الله تبارك وتعالى، وليس هناك إلاّ الله في مثل هذه المواقف.

هذه دروس تعلمناها من هذه الكارثة، وتعلمنا أن هناك أناساً ـ للأسف ـ يتاجرون في أرواح الناس، فمعظم الذين ماتوا إنما ماتوا بأولئك الطامعين من المهندسين والمقاولين، الذين يبنون بنايات لا يراعون فيها ما ينبغي أن تكون عليه، ليكسبوا من وراء ذلك وإن مات الناس وهلكوا، هؤلاء الذين يتقاتلون على جيفة الدنيا، ولا يبالون بما يصيب الخلق، ينبغي أن يراجعوا أنفسهم.

يا أيها الإخوة: هذه الأمة لا يصلحها إلاّ الدين، الدين هو الذي يصنع أخلاقها، ويحيي ضمائرها، ويربطها بالله تعالى وبالآخرة، هذا الدين هو الذي يستطيع وحده أن يحي الأمة ويجعل منها خير أمة أخرجت للناس.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يلطف بنا في قضائه وقدره، وأن يذهب عنا شر

---

(١) مما جاء في فضله حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كلّ ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب» رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، كلهم من رواية الحكم بن مصعب، قال الذهبي: والحكم فيه جهالة. وقال المنذري في مختصر السنن: لا يحتج به، ودافع عنه الشيخ شاكر في تخريجه للمسند، وصحح إسناده (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٤٦٩، الحديث ٩٠٥).

(٢) انظر في فضل هذه الكلمات وما ورد فيها من ترغيب (المنتقي من كتاب الترغيب والترهيب: كتاب الذكر والدعاء).

الزلازل والنوازل، وأن يقينا ما ظهر منها وما بطن، وألا يهلكنا بما فعل السفهاء منا، اللهم آمين.

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، إنه سميع قريب، فاستغفروه يغفر لكم.

● الخطبة الثانية:

أما بعد: فقد ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم إنّا نسألك العفو والعافية، في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا، وعن شمائلنا، ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا.

اللهم اجمع كلمتنا على الهدى، وقلوبنا على التقى، وأنفسنا على الحب فيك، وعزائمنا على عمل الخير وخير العمل.

اللهم لا تجعل للشيطان على أنفسنا سبيلاً.

اللهم أعنا على شهوات أنفسنا، وأصلح فساد قلوبنا، وتب علينا توبة نصوحاً.

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك فينا ولا يرحمنا، وارفع مقتك وغضبك عنا، وآمنا في أوطاننا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك.

اللهم اجعل هذا البلد آمنا مطمئناً، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين.

﴿... رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ [آل عمران: ١٤٧] .

اللهم انصر إخواننا في فلسطين، وانصر إخواننا في البوسنة والهرسك، وانصر إخواننا في جامو وكشمير، وانصر إخواننا في كل مكان يقاتلون فيه، وانصر إخواننا المضطهدين المعذبين.

اللهم فك بقوتك أسرهم، واجبر برحمتك كسرهم، وتول بعنايتك أمرهم.

﴿... رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] .

عباد الله: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦] .

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥] .